الإسلام والمسلمون في الصين

ما بين القرنين السابع والعاشر ميلادي

خالد ممدوح الكردي *

اقتصر الحضور الإسلامي في الصين خلال القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، على التجّار المسلمين الذين يترددون على الصين أو المقيمين بها. ومن الدعاة المسلمين الموجودين في الصين لغرض الدعوة لدينهم، بالإضافة إلى الصينيين الذين اعتنقوا الإسلام. ولتوضيح حالة المسلمين في الصين، يجب قراءة الأحداث الفارقة والمهمة بين الدولة الإسلامية والصين.

سيطر المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على بلاد فارس عام 22هـ/ 643م [1]. ورغب "يزدرجد" ملك الفرس، بالاستعانة بملك الصين ليقف بجانبه دفاعًا عن بلاده من جيوش المسلمين[2]، فأرسل إليه رسولًا. وقد سأل ملك الصين رسول "يزدجرد" أن يصف له المسلمين وجيوشهم التي فتحت بلادًا واسعة[3]. وبعد سماعه لصفاتهم كتب بكتاب إلى يزدجرد يقول فيه: "إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليّ، لكن هؤلاء القوم ما داموا على ما وصف لي رسولك صفتهم لو يحاربون الجبال لهدوها ولو جئت لنصرك أزالوني ما داموا على وصف لي رسولك فسالمهم وأرضى بالمسالمة"[4]. كانت لدى ملك الصين قناعة بعدم مقاتلة المسلمين لتقديره لقوة الجيش الإسلامي، فما كان من يزدجرد إلا أن أرسل بكنوزه وأمواله وميراث آبائه إلى ملك الصين طالبًا اللجوء عنده، ويشير المقدسي بالقول: "ويزدجرد لما رأى من غلبة العرب بعث بخزائنه وكنوزه إلى الصين"[5]. لقد

مصحف طُبع في الصين مطلع القرن السابع عشر الميلادي

اتخذ ملك الصين قرار عدم المشاركة مع الفرس في محاربة المسلمين، واكتفى بالسماح ليزدجرد باللجوء إلى بلاده لأن بلاده لا تحتاج لأعداء جدد، فقد كان مشغولًا، بُحروب على حدود إمبراطوريته، ولأن بلاد فارس بعيدة ولا خطر يتهدد بلاده من المسلمين"[6]. فلجأ الكثير من الفرس مع عائلة كسرى إلى الصين بعد الفتح الإسلامي لبلاد الفرس، وقد سمح ملك الصين للاجئين الجدد ببناء معابدهم من

أجل ديانتهم وهي المجوسية، وقد عرفت الصين حينذاك العديد من الديانات الأجنبية، فوجدت فيها بعض الكنائس النصرانية والمعابد البوذية، وحظيت بحماية رسمية من ملك الصين وحكومته.

بقيت الفتوحات الإسلامية تتجه شرقًا نحو الصين، فوصلت جيوش الحجاج إلى الهند والسند، "ووصلت خيوله أيضًا إلى قريب من بلاد الصين"[7].

وقد برز القائد قتيبة بن مسلم الباهلي الذي كلفه الحجاج بن يوسف الثقفي بمهمة الوصول إلى تخوم الصين الغربية، وفي العام 88هـ/ 707م، استطاع قتيبة أن يحقق نصرًا "كبيرًا على الجيش الصيني وسط آسيا الذي كان تحت إمرة ابن أخت ملك الصين[8].

ويمكن القول إنه في العهد الأموي كانت هناك علاقات بين الصين ودمشق مركز الخلافة الإسلامية. فمن سياق النصّ السابق يبدو واضحًا أن ملك الصين حرص على إظهار عظمة ملكه واتساع ثرائه لخليفة المسلمين آنذاك. ولعل هذا التبادل الرسمي له أثره على نظرة ملك الصين نحو المسلمين عامة والمسلمين الموجودين داخل مملكته. وفي عام 96هـ/ 715م غزا المسلمون تحت قيادة قتيبة الصين [9]، ووصلوا إلى مدينة كاشغر [10]. وقد طلب ملك الصين من قتيبة أن يرسل وفدًا للتفاوض، ولمعرفة المزيد من الإسلام[11]، فأرسل قتيبة وفدًا كبيرًا بقيادة هبيرة بن المشمرج [12]. وطلب قتيبة من هبيرة بأن يبلغ ملك الصين رسالته وهي: "أني قد حلفت ألا انصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم"[13].

وكان وفد المسلمين المؤلف من ثلاثمائة رجل برئاسة هبيرة قد وصل إلى الصين، فسألهم عن سبب مجيئهم، فأخبروه بأن قتيبة بن مسلم يدعوك إلى الإسلام، فإن لم تفعل فالجزية، فإن لم تفعل فالحرب[14]. وقد غضب الملك وأمرهم بالمكوث في دار لمدة ثلاثة أيام[15]. وفي اليوم الأخير بعث ملك الصين لهبيرة يهدده، وأمره بأن يخبر قائده قتيبة بأن: "ينصرف، فإني قد عرفت قلة أصحابه وإلا بعثت إليكم من يهلككم[16]". فما كان من هبيرة إلا أن رد عليه قائلًا: "تقول لقتيبة هذا فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون، وكيف يكون حريصًا من خلف الدنيا قادرًا عليها وغزاك في بلادك"[17]. يظهر أن كلام هبيرة كان له التأثير على ملك الصين، فأشار إلى أعوانه لتلبية شروط قتيبة، فأرسل بتراب من الصين لكي يطأه قتيبة ومعه أربعة غلمان من أبناء الملوك ليختمهم وكذلك ذهبًا وحريرًا[18].

نستنتج هنا، مدى اهتمام ملك الصين على عدم استفزاز المسلمين وجيشهم، وأن الملك كان على معرفة جيدة بقدرات المسلمين القادمين من أقصى غرب آسيا، ليدقوا بوابات أقصى شرق آسيا حاملين رسالة مقدسة للإنسانية. لقد عرف عن ملوك الصين قديمًا الحكمة والحنكة. ويمكن القول هنا إن ملك الصين استخدم حكمة بلاده المعروفة لتفادي الاصطدام بجيوش

المسلمين، ولو كان ذلك على حساب كرامته وكرامة الصين. "فإن مثل هذا الإذلال الذي أصاب ملك الصين يقوم مقام الفتح لهذه البلاد أو يزيد"[19].

ويرى أحد المؤرخين الغربيين أنه "لشيء عجيب أن يرفض هؤلاء الغرباء الفخورون أداء المراسيم الخاصة بالصينيين داخل القصر الملكي والتي يطلق عليها مراسم (كرتاو)"[20]. إذ أعلن المسلمون حينها أنهم لا يركعون إلا لله، وليس لأي عبد على وجه هذه الأرض، فما كان من الملك إلا أن سمح لهم بالحديث من دون مراسم قصره المعتادة، لكن بامتعاض شديد.

ويشير مؤرخ غربي إلى حدث شبيه، لكنه وقع بعد أكثر من ألف عام، عندما حضر وفد بريطاني أمام ملك الصين الذي أصرّ على الوفد أن ينصاع لمراسيم القصر ومنها الركوع أمام الملك، فانصاعوا لأمره وركعوا [21]. في حين نرى أن وفد هبيرة وقف بكل شجاعة وإباء ليعبر عن رسالة واضحة لا شك فيها هي رسالة العبودية لله وحده.

وفي عهد هشام بن عبد الملك بن مروان، وصلت جيوش المسلمين إلى أرض الصين ودعا ملكها إلى الإسلام[22]. ويمكن القول إن الفتوحات الإسلامية وسط آسيا كان لها التأثير الكبير على حكام الصين، ولا بد أن هذه الفتوحات قد أثرت على تعامل هؤلاء الحكام مع المسلمين بوجه عام، ومع التجّار المسلمين المقيمين في الصين والذين يتعاملون معها. لقد ركزت جهود الأمويين بعد قتيبة على تثبيت أقدام المسلمين في آسيا الوسطى ونشر الإسلام فيها[23]. وآسيا الوسطى تعني من الناحية التاريخية والجغرافية أجزاء من الصين والمناطق الأصلية للشعوب والقبائل التركية[24].

- حكم أسرة التانغ (Tang)

حكمت أسرة التانغ (Tang) الصين، مع بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وأصبحت الصين خلال هذه الفترة من أعظم الحضارات وأوسعها نفوذًا وثراء. وأسست أسرة تانغ الحاكمة عاصمة لهم باسم "تشانق آن" (Chang'An) والتي رجح بأنها كانت أكبر مدينة في زمانها.

لقد خطط المصممون والمهندسون لهذه المدينة شوارع عظيمة وطويلة تمتد من الشمال إلى الجنوب، فوصل للعاصمة العظيمة تجّارًا من جميع أنحاء العالم وخاصة من غرب آسيا، وعاش الكثير من الأجانب والتجّار في هذه العاصمة الحيوية من العرب واليونانيين والهنود والفرس واليابانيين.

كانت عاصمة الإمبراطورية الصينية آنذاك وغيرها من المدن الصينية الكبيرة مزدحمة بالأجانب ومن ضمنهم المسلمون. فحكام التانغ كانوا منفتحين على العالم، وأبدوا اهتمامًا كبيرًا بالأجانب والثقافات المتعددة الموجودة في العاصمة أو في مدن أخرى من الصين. فقد كانت حضارة واثقة من نفسها وخاصة في بداية عهدها [25]، ومن المؤكد أن المسلمين قد استفادوا من هذه السياسة المنفتحة.

- العلاقات بين السلطات الحاكمة والجاليات

اتسمت العلاقات بين السلطة الحاكمة والجاليات الأجنبية "بالسهولة والسلاسة"، وبذلك ازدهرت علاقات الصين مع العديد من الدول الأخرى؛ فزادت النشاطات التجارية، وقدمت السفارات الأجنبية لعاصمة الصين محملة بالهداية والأفكار الجديدة. فانتعشت حياة الأقليات الأجنبية.

ويبدو أن الصين اتبعت سياسة حماية الأجانب ومنهم العرب والمسلمون وغيرهم، وأحسنت معاملتهم لما يحققه ذلك من فائدة تجارية ومكانة مرموقة بين الدول.

كانت الصين في تلك الحقبة تخضع لنظام إداري صارم من قبل الحكومة؛ فكان هناك أكثر من 18,805 موظفين حكوميين لإدارة البلاد بمعاشات منتظمة مع تعداد سكاني للصين آنذاك وصل لخمسين مليون نسمة. وكان على كل فرد بما فيهم الأجانب المقيمين تسجيل وتوثيق أسمائهم في أماكن إقامتهم من خلال موظفي الحكومة، وكان على المقيمين الأجانب تسجيل أسمائهم في مكان إقامتهم، وأن يحملوا معهم وثائق سفر خصصت لهم.

ومما ذكر، نستطيع أن نتصور مدى المدنية التي وصلت إليها الصين خلال عصر التانغ. وعلى الأرجح أن وجود المسلمين في الصين آنذاك، قد خضع لمعاملات رسمية حكومية، بالإضافة إلى الترحيب الرسمي بالمسلمين وغير المسلمين وذلك رغبة من قبل الحكومة باستقطاب التجّار الأجانب وتأسيس علاقات رسمية مع دول أخرى لما يعود ذلك بالفائدة على الصين نفسها.

- الواقع الاقتصادي للمسلمين في الصين

كانت الصين في فترة حكم "أسرة تانغ" قبيل 131هـ/ 750م، مزدهرة تجاريًا واقتصاديًا[26]. فمن المعروف، أن التجّار العرب كثيرو السفر إلى الصين، وقد عرفوا جيدًا جغرافية المسار والإبحار للصين من الجزيرة العربية[27]. ففي عهد الإمبراطور "شوان زونغ" (XuanZong)، (93-138هـ/ 712-755م)، ارتفع تعداد الشعب الصيني، وأصبح الازدهار الاقتصادي أهم ما يميز عهد "الإمبراطور شوان زونغ"[28].

كذلك توسعت تجارة هونغ كونغ مع بقية آسيا خاصةً مع بلاد الفرس والهند، ووصلت التجارة إلى مدينة على الساحل الشرقي هي مدينة "كانتون (Canton)"، وقد أصبحت عاصمة الصين مدينة تشانغ آن (Chang An) في عهد التانغ مركزًا اقتصاديًا مهمًا للمسلمين وغيرهم أسوة بالمدن الساحلية، فقد أسس مسجد للتجّار المسلمين وكنيسة للنصارى السوريين في العاصمة (Chang An).

وكان للتجّار المسلمين مزايا جيدة اقتصادية واجتماعية وحتى دينية، فخلال القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، سُمح لهم بإنشاء المساجد في العاصمة الصينية، والتعامل التجاري مع أهم المدن التجارية الساحلية مثل هونغ كونغ ومدينة كانتون كما ذكر سابقًا.

- تجارة الورق

اشتهرت الصين في صناعة الورق، وانتشرت صادرات الورق خارج حدود الصين. وقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست عن الورق الصيني والتعامل به من قبل تجّار قدموا من الصين[29]. ومع أن عصر ابن النديم أتى لاحقًا بعد القرن الثاني الهجري، إنما يدل على رواج التجارة في الورق الصيني وعلى حركة التجّار المسلمين بين الصين والعالم الإسلامي التي كانت نشطة ومتواصلة. وكان التجّار الأجانب في تلك الحقبة لا يخضعون لدفع ضرائب للدولة[30]. وقد يفسر ذلك كسياسة اقتصادية من قبل حكومة الصين لتشجيع التجّار المسلمين بالتجارة مع بلادهم وترويج النشاط الاقتصادي المتبادل.

- طريق الحرير

كان لطريق الحرير التجاري دور مميز في تزايد الحركة الاقتصادية بين المسلمين والصين في عهد التانغ. كذلك أصبح الدينار الفضي الإسلامي أهم عملة يتعامل بها التجّار عن طريق الحرير. فشجع هذا النظام المالي الجبايات والضرائب المتزايدة بين الصين والعالم الإسلامي. فعظم نفوذ الدولة الخزرية الواقعة على طريق الحرير، وتوسعت دولتهم معتمدة على الضرائب المكتسبة من التجّار المسلمين وبالتالي وفرت الحماية للقوافل والتجّار.

- اعتماد الدينار الإسلامي عملة للتداول

إن اعتماد الدينار الفضي الإسلامي كعملة دولية آنذاك، للتعامل بين التجّار في طريقهم من الصين وإليها، عزز من مكانة التجّار المسلمين ووجودهم داخل الصين. ويمكن عدّ الدينار الفضي بمثابة العملة الصعبة في تلك الحقبة، ما جعل للتاجر المسلم ومكانته الاقتصادية التجارية في السوق الصيني، ميزة خاصة واهتمامًا من قبل التجّار الآخرين، بالإضافة للمعاملة الخاصة من الحكومة الصينية الطامحة لاقتصاد قومي ونفوذ أوسع لإمبراطوريتها.

- الواقع الاجتماعي للمسلمين في الصين

تميّز حكام أسرة التانغ وخاصة خلال القرن الهجري الأول/ السابع الميلادي، بانفتاحهم على الآخرين واهتمامهم بالجاليات المختلفة في مجتمعهم[31]. ففي القرن الهجري الأول/ السابع الميلادي، جاء الكثير من العرب واستقروا في مدينة كانتون الساحلية الشرقية[32]، وتم بناء مسجد قبيل منتصف القرن الأول الهجري[33]. وقد حدث هذا زمن سيطرة العرب على خطوط التجارة البحرية المؤدية للصين، كذلك على الخط البري الرئيس وهو طريق الحرير عبر وسط آسيا[34]، وقد رحبت عاصمة الإمبراطورية الصينية "تشانغ آن" بالعرب في مدينتها. وما عزز تلك العلاقات الاجتماعية في العاصمة نفسها وفي مدينة كانتون كما ذكر سالفًا، وصول العديد من البعثات الرسمية العربية لبلاط الإمبراطور[35]. وكانت تلك الحقبة من عهد تانغ، تعدّ بداية نمو الجالية الإسلامية في الصين، فقد ازداد عددهم ونما الإسلام هناك بالطرق السلمية. فلقد عرف عن

الإمبراطور الصيني "توفو" (Tufu) (93-153هـ/ 712-770م)، حبه للشعر وكرهه للحروب وتعاطفه مع العامة في مجتمعه. فشجعت هذه الأجواء العامة على تخالط مختلف الفئات من الأجانب بما فيهم المسلمون مع الصينيين ومع بعضهم البعض. وكان من المعروف عن الصينيين أنهم أولو نزعة "استعلائية"، إلا أنه في عهد التانغ كانت العلاقات الاجتماعية قوية مع المسلمين والأجانب عامةً، وتم الترحيب بهم في العاصمة كذلك في أهم المدن الصينية الساحلية التجارية[36]. ويبدو هذا مسارًا اجتماعيًا طبيعيًا للعلاقات بين المسلمين والصينيين في عهد التانغ. فالصين كانت تتمتع بمكانة مرموقة بين الأمم كذلك العالم الإسلامي الذي كان فتيًا وفرض نفسه كقوة عظمى سياسية واقتصادية. فليس هناك شك بأن تكون الأوضاع الاجتماعية للمسلمين في الصين في أحسن وجه، بل قد حرص الصينيون على العناية والاهتمام بالجالية المسلمة للحفاظ على العلاقات الدولية والمصالح التجارية. إضافة لما تمتع به المجتمع الصيني من ازدهار اقتصادي وثقافي، وبالتالي له الأثر الإيجابي على علاقته بالمسلمين. لقد كان مجتمع التانغ مجتمعًا مستنيرًا منفتحًا على العالم، وقد أدى إلى علاقات جيدة مع المسلمين في المجتمع الصيني، وكما قيل فإن المجتمع الصيني لم يشهد مثل هذا الانفتاح إلا في القرن العشرين[37] والقرن الحالي أيضًا.

إن عدد السكان الكبير الذي وصلت إليه الصين يدل على استقرارها وازدهارها الاقتصادي، فبالرغم من الكوارث الطبيعية التي حلت بالناس، إلا أنها لم تؤثر جذريًا على المجتمع، ولا تتوفر لدينا معلومات عن أثر هذه الكوارث على المسلمين.

- **الانتشار الجغرافي للمسلمين في شرق الصين**

تشير الدراسات العربية إلى تواجد المسلمين في أنحاء مختلفة من الصين منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. فقد قال أبو زيد: "وجميع من ببلاد الصين أهلها ومن العرب وغيرهم لا بد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به"[38]. "وكانت السلطات الصينية تسجل أسماء وأعمال السكان"[39]. وهذا يدل على وجود سكان من العرب في الصين منذ القرون الهجرية الأولى، وأن العرب سكنوا واستقروا في المجتمع الصيني كما تذكر رحلة السيرافي، "أن لصًا لو دخل منزل رجل من العرب المتعاملين بالدنانير والدراهم لتهيأ له حمل عشرة آلاف دينار"[40]. وهذا يؤكد أن العرب والمسلمين سكنوا الصين، وان لهم فيها منازلهم الخاصة، وأنهم كانوا من الأثرياء.

وقد تحدث اليعقوبي عن ملوك الصين بأنه عرف عنهم من خلال "الرواة وأهل العلم ومن سار إلى بلاد الصين فأقام بها الدهر الطويل حتى فهم أمرهم"[41]. وقد استعان اليعقوبي بالمسلمين الذين أقاموا في بلاد الصين "الدهر الطويل"، كمصدر لمعرفة أخبار ملوك الصين. ويقال إن أول مجموعة من المسلمين أقامت في الصين هم من ذهبوا لقتال أحد المتمردين على الإمبراطور الصيني، حيث استعان الأخير

بالخليفة العباسي أبو جعفر المنصور عام (139هـ/ 756م)[42]. فقد تخلف الكثير من المقاتلين العرب في الصين، وتزوجوا من نساء صينيات، وحافظوا على حياتهم الدينية الإسلامية[43]. ولحظت بعض الرسومات الفنية من عهد أسرة التانغ، رسم صور للعرب، كعنصر من المجتمع الصيني. وأشار الرحالة ابن بطوطة إلى تواجد المسلمين في جميع أنحاء الصين، إذ يقول: "وفي كل مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بها، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها"[44]. وقد وصف بكل وضوح تواجد المسلمين بمدن وأماكن خاصة بهم، والأرجح أن المسلمين فضلوا الإقامة حول مساجدهم حتى يتمكنوا من الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم.

وروى ابن النديم عن التجّار والمسافرين إلى الصين، أن السلطات الصينية كانت تسجل اسم التاجر ونسبه "ومبلغ سنه ومبلغ ما معه ورقيقه وحاشيته"[45]، وذلك حرصًا على سمعتها في بلاد المسلمين، ورغبة في إظهار أن الصين هي بلاد أمن وأمان[46].

وقد تميز المسلمون الذين انتشروا في جميع أنحاء الصين خلال القرون الهجرية الأولى بالمحافظة على عاداتهم الإسلامية في المأكل والمشرب والزواج والختان. فقد رفضوا التعامل بالربا وأقاموا المساجد والمدارس العربية. ومن الدلائل الواضحة التي تؤكد استقرار المسلمين في الصين خلال العصر العباسي، أن المساجد كانت تدعو للخليفة العباسي أو لسلطان مسلم من بلاد المسلمين المجاورة للصين؛ فقد ذكر عن الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن (575-622هـ/ 1179-1225م)[47]، بأنه "خطب له ببلاد الأندلس وبلاد الصين"[48]. ويدل ذلك على أن مسلمي الصين حرصوا أيضًا على انتمائهم وولائهم للخلافة الإسلامية والدعاة للخليفة، الذي عدّوه قائدًا لهم ورمزًا. وذكر أيضًا عن السلطان ملكشاه[49] أنه قد "خطب له من حدود الصين إلى آخر الشام"[50].

كما ارتبط مسلمو الصين مع باقي مسلمي دولة الخلافة ثقافيًا، إذ كانوا ينهلون من كتبهم ويتثقفون على مؤلفاتهم، إذ يقول الذهبي: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرًا"[51]. وهناك رواية ذكرها ابن النديم في كتابه "الفهرست" عن خمسمائة رجل ينتمون لأديان المنانية[52]، حيث أراد أمير خراسان قتلهم فأرسل له ملك الصين يهدده، وقال له "إن في بلادي من المسلمين أضعاف من في بلادك من أهل ديني"[53]. وهدد ملك الصين بقوله: "إن قتل واحد منهم قتل الجماعة به، وأخرب المساجد وترك الأرصاد على المسلمين في سائر البلاد"[54]. وقد ذكر ابن النديم في روايته أن صاحب خراسان لم يقتل أي أحد من المنانية، وقبل الجزية منهم[55]. وهذه الرواية تؤكد وجود أماكن استقرار للمسلمين في جميع أنحاء الصين.

وأهم المدن التي استقر فيها المسلمون والعرب في شرق الصين مدينتي خانفو[56] (كانتون) والزيتونة[57]؛ فقد ذكرت مدينة خانفو في رحلة السيرافي بأنه كان في خانفو

رجلًا مسلمًا يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية، وإذا كان في العيد صلّى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين"[58]. وقد روى هذه الرواية الرحالة والتاجر المعروف باسم سليمان التاجر [59]. وترجع في الغالب إلى عام (237هـ/ 851م)[60]. وتعدّ هذه الرحلة مصدرًا أساسيًّا مهمًا لمؤرخين يبحثون في تاريخ مدينة خانفو وعلاقتها باستقرار المسلمين والأجانب. كما كان سليمان التاجر قد شاهد بنفسه أحوال مدينة خانفو، وبلك فقد أصبحت روايته التي سردها لأبي زيد صاحب كتاب رحلة السيرافي من أهم وأوثق المصادر التاريخية التي وصلتنا عن استقرار المسلمين والأجانب في خانفو.

ويذكر مصدر صيني تاريخي قديم يعرف باسم "تشو كوتان" (Cho Ko Tan) بأنه تم تعيين قاضٍ مسلم في مدينة خانفو التي يسكنها التجّار المسلمين والعرب، وأنه في خطبة الجمعة يدعو الخطيب لسلطان المسلمين. وقد أصبحت مدينة خانفو معروفة ومشهورة عند التجّار العرب والمسلمين، "ومدينة خانفو التي يقصد إليها تجّار العرب" [61]. ووصفها أيضًا، "خانفو هي المرفأ الأكبر "[62].

وقد حدد بن خردازنة عدد المدن الصينية فقال: "الصين ثلاثمائة مدينة عامرة كلها، منها تسعون مشهورة"[63]. فقد ذكرت مصادر صينية قديمة أولية بأنه كان في الصين خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، خمسة وعشرين مدينة حيث عدد سكان كل مدينة أكثر من نصف مليون نسمة. ويقول المصدر نفسه بأن خانفو لم تكن مدينة كبيرة إلا أنها كانت الأكثر ثراء، حيث سكنها حوالي مائتي ألف أجنبي. وكان العرب والمسلمون يسيطرون على هذا الميناء الأهم في الصين، ويؤكد مؤرخ غربي فيقول: " كانت كل خانفو تقريبًا بأيدي العرب"[64]. وأطلق الصينيون على مدينة خانفو مسمّى "ميناء كانتون العظيم... خانفو العرب". وكانت هذه المدينة الشهيرة تتميز عن غيرها من المدن الصينية بكثرة عدد العرب المقيمين فيها.

ومن الواضح أن المسلمين استقروا في مناطق خاصة بهم في مدينة خانفو، وعليه فقد أصدرت السلطات الصينية أمرًا إمبراطوريًّا بأن يعيش أجانب مدينة خانفو في المنطقة الجنوبية من المدينة. ويبدو أن التجّار المسلمين قد تمتعوا بمعاملة رسمية مميزة من قبل المجتمع والسلطات، "فمدينة خانفو سكنها مواطنون من أمم متحضرة مثل العرب، يعيشون جنبًا إلى جنب مع تجّار أقل تحضرًا مثل الرجل الأبيض الهمجي والرجل الأحمر الهمجي".

ويصف المصدر التاريخي الصيني بأن التجّار المسلمين قد تعايشوا مع المجتمع الصيني، وتبادلوا جميع أنواع التجارة في كل أسواق المدينة[65]، ويبين أن معظم التجّار المسلمين قد أتوا من سيراف عبر الطريق البحري بين الخليج العربي وساحل الصين[66].

من الملاحظ أن التجّار العرب والمسلمين قد وجدوا مدينة خانفو الأنسب مكانًا والأهم اقتصاديًّا للاستقرار في الصين. فقد أصبحت

بفعل هؤلاء التجّار من أهم مصادر المال والجباية والضرائب لحكومة الصين.

من هنا يتضح أن السلطات الصينية قد خصّت المسلمين بمعاملة حسنة ومنحتهم مكانة خاصة لم ينلها غيرهم من الأجانب. وأصبح استقرار المسلمين في أهم موانئ الصين قاطبة مرتبطًا بالشريعة الإسلامية لوجود قاض مسلم، بل ومعترف به رسميًّا من قبل إمبراطور الصين. وكان المسلم يُعرف عند الصينيين بأنه صاحب حضارة رفيعة وعالية، وهذا يدل على التزام التجّار القيم الإسلامية. وقد روي أن تاجرًا عربيًّا تم منحه لقبًا مميزًا وخاصًا وهو "السيد النبيل" (Advance Gentleman)، أو بالصينية (Chin Shin). وقد حدث هذا في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

الحدث الأهم في تاريخ استقرار المسلمين في خانفو، والذي ذكر في المصادر العربية الأولية واعتمدت عليه مصادر تاريخية أجنبية لاحقًا، هو قيام أحد القادة العسكريين المتمردين بالهجوم على مدينة خانفو، وقتله من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس مائة وعشرين ألفًا في سنة (264هـ/ 877م)[67]، وقد أكد السيرافي تعدد الضحايا من المسلمين وغيرهم، "إنما عرفت عدد هذه الملل الأربع لتحصيل أهل الصين بعددهم"[68]. أما المسعودي، فقد ذكر عددًا لضحايا هذا التمرد يختلف عمّا رواه أبو زيد، حيث ذكر بأن العدد مائتا ألف. وبرر هذا الرقم بقوله: "أحصى ما ذكرناه من العدد الأول لأن ملوك الصين تحصي من في مملكتها من رعيتها ومن جاورها من الأمم... في دواوين لها وكتاب قد وكلوا بإحصاء ذلك، لما يراعون من حيطة من شمله ملكهم"[69]. ويبدو أن المراجع الغربية اعتمدت رواية أبي زيد، حيث ذكرت أن التمرد قام به قائد عسكري يدعى "هوانغ تشاو" في سنة (265هـ/ 879م) [70]. أما كتاب رحلة السيرافي، فقد ذكر أن اسمه بابشو[71].

كانت هذه الحادثة بمثابة الضربة القاصمة لسمعة ونفوذ ميناء خانفو العظيم. فبعد إعدام عشرات الألوف من التجّار العرب والمسلمين وهروب الكثير من خانفو، بدأت هذه المدينة تفقد مكانتها الاقتصادية، ولم تستطع أن تعيد مجدها القديم ففقدت أهميتها ونفوذها[72]. وعلل أحد المؤرخين الصينيين هذا الحدث بأن الجنرال المتمرد بابشو أراد أن ينصّب نفسه حاكمًا عسكريًّا على خانفو إلا أن القصر الإمبراطوري رفض طلبه، وعلق مؤرخ آخر بقوله: "إن هذا الجنرال قتل المسلمين وغيرهم من الأجانب في خانفو لأنه حملهم مسؤولية المشاكل التي كانت الصين تعيشها آنذاك"[73].

ومن المدن المهمة التي استقر فيها المسلمون في الصين مدينة الزيتون التي عرفت بأنها فرضة من فرض الصين[74]، وقد وصفت في المصادر العربية بأنها "مدينة مشهورة على ألسنة التجّار المسافرين إلى تلك البلاد" [75]. وكتب عنها ابن بطوطة: "هي مدينة عظيمة وكبيرة... ومرساها من أعظم مراسي الدنيا وهو أعظمها"[76]. ومدينة الزيتون[77] معروفة عند المؤرخين الصينيين والغربيين باسم "كوان زو" (QuanZhou)، وهذا الاسم المرادف لمدينة الزيتون ستأتي

أهميته خلال صفحات هذا البحث، لاعتماد المؤرخين الصينيين والغربيين على مصطلح QUANZHOU. وقد ذكر أحد المصادر التاريخية الصينية أن المسلمين وصلوا إلى مدينة الزيتون خلال القرن الهجري الأول/ السابع الميلادي كدعاة للإسلام، وتم بناء مسجد ضخم وهو ما زال موجودًا في مدينة الزيتون، وما زالت جدرانه القديمة قائمة، لكن بلا سقف، وبجانبه عدد من قبور المسلمين وعليها كتابة باللغة العربية. ويدل هذا على أن مدينة أو ميناء الزيتون لها جذور قديمة مرتبطة بالمسلمين والإسلام. وقد اشتهرت الجالية المسلمة في مدينة الزيتون في بداية القرن 7 هجريًا/ 13م حيث عين للمسلمين المقيمين قائد أو قاضٍ، وكانت جالية مزدهرة ونشطة. مع هذا التطور المتسلسل لاستقرار المسلمين في الزيتون منذ القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، يظهر أن استقرار المسلمين في هذا الميناء هو استقرار سلمي ومتدرج، وتطور منذ القرون الأولى.

مع بداية القرن الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر الميلادي، كان التجّار المسلمون من أصل صيني أو من المقيمين الأجانب الأكثر غنًى وثراءً في ميناء الزيتون. وإلى هؤلاء التجّار يعود الفضل في انتشار الإسلام في مناطق جنوب شرق آسيا مثل بورنيو وجنوب الفلبين، والكثير من الموانئ على طول الخط البحري في تلك المناطق، وكان نفوذ التجّار المسلمين في الزيتون الأكثر قوةً وتوسعًا.

وقد وصف ابن بطوطة رحلته إلى ميناء الزيتون بدقة مشاهداته هناك، ومقابلته للعديد من الشخصيات والعلماء المسلمين (78)، فيقول: "والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة" (79). وهذا الوصف لسكن المسلمين ينسجم مع ما سبق ذكره عن المصدر الصيني الذي أشار الى أن إقامة العرب والأجانب كانت في الجزء الشرقي من المدينة، وبالرغم من أن ابن بطوطة لم يحدد الجهة التي أقاموا فيها إلا أن هناك ما يدل على أن المسلمين سكنوا واستقروا في الزيتون بمنطقة منفصلة عن الصينيين. وكما هو معلوم أن رحلة ابن بطوطة تمت في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي(80). لكن استقرار المسلمين يرجع إلى ما قبل ذلك، وكان ابن بطوطة عند وصوله لمدينة الزيتون، يكتب تفاصيل قدومه ويتحدث عن أحوال المدينة وأهلها، فقد تحدث عن قاضي المسلمين تاج الدين الأردويلي وهو من الأفاضل والكرماء، كذلك شيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني، إضافة إلى عدد من كبار التجّار ومنهم شرف الدين التبريزي(81).

وقد أشاد ابن بطوطة بكرم المسلمين المقيمين بالزيتون، حيث أنهم يفرحون لقدوم أي مسلم على المدينة، ويعطونه من زكوات أموالهم، "فيعود غنيًّا كواحد منهم"(82). ويبدو واضحًا من رواية ابن بطوطة أن مسلمي مدينة الزيتون لهم صفات حميدة مثل الشعور بالأخوة الإسلامية والنخوة والكرم، فهم يفرحون برؤية أي مسلم يقدم إليهم ويعطونه من زكاة أموالهم. كما يفهم من الرواية أن مسلمي الزيتونة كانوا أغنياء، إذ يصبح القادم غنيًّا من خلال زكواتهم.

- الانتشار الجغرافي للمسلمين في وسط الصين

في القرن الثامن الميلادي، أصبحت العاصمة الصينية تشانق آن (CHANG AN) من أعظم مدن العالم من حيث الحجم وعدد السكان والثروة والفنون، واشتهرت هذه المدينة بمخططها المدني وبشوارعها الأنيقة المتناسقة هندسيًا.

اشتهرت تشانق آن بالتنوع الثقافي وتعدد الفنون في مختلف مجالات الحياة، وقد وصل إليها التجّار من جميع أنحاء العالم، كذلك ازدهرت فنون وثقافات متنوعة. وسمح للأجانب في تشانق آن ببناء كنائسهم ودور عبادتهم.

وقد بنى المسلمون في بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، مسجدًا في المدينة. وبنى نصارى سوريون كنيسة لهم، وتم بناء دور عبادة لأديان أخرى، كما بنيت العديد من الحدائق.

وتتحدث المصادر الإسلامية التي تناولت الصين في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وأوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، عن مدينة وصفتها بأنها عاصمة الصين، وأطلقت عليها اسم خمدان. إذ يقول السيرافي: "مدينة خمدان ومقر الملك" (83). ويقول المسعودي ناقلًا عن السيرافي: "مدينة خمدان التي بها الملك وصفتها ونعتها" (84). ويقول ابن حوقل: "مملكة الصين كلها منسوبة إلى صاحب الصين المقيم بخمدان" (85). ويرجح أن خمدان هي نفسها "تشانق آن" (CHANG AN). لكن التعريب الذي يحدثه العرب في كثير من الأحيان على أسماء المدن هو الذي حولها إلى خمدان.

كانت مدينة خمدان (تشانق آن) منقسمة إلى قسمين؛ القسم الأيمن يقيم به الملك وحاشيته وقاضي القضاة، والقسم الأيسر يسكنه الرعية والتجّار وتوجد فيه الأسواق، وقد اشتهرت المدينة بأنهارها المتعددة وطبيعتها الخلابة(86). وأن بهذا البلد من كل نزهة وغيضة حسنة وأنهار مطردة إلا النخل فإنه معدوم"(87). ولم تذكر رحلة السيرافي معلومات عن أحوال المسلمين في مدينة خمدان غير وجود تجّار في الشقّ الأيسر من المدينة. وكما أن هذه الحقبة من تاريخ الصين والإسلام مهمة وغنية بالتبادل التجاري، فإنه على الأرجح بأن التجّار الذين ذكروا في رحلة السيرافي، كان من بينهم تجّار عرب ومسلمون. لأن خانفو كان الميناء الأكبر في الصين، وكان يقطنها عشرات الآلاف من التجّار المسلمين، ومن الطبيعي أن يقصد العاصمة المسلمون لأغراض رسمية أو تجارية.

ومقارنة مع مدينة وميناء خانفو، كانت خمدان ذات كثافة أكثر بعشرات المرات من ميناء خانفو. فقد وصل عدد سكان عاصمة الصين في منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي أكثر من مليوني نسمة، وكانوا جميعهم مواطنين يدفعون ضرائب في ظل حياة مزدهرة واقتصاد قوي نشط. وفي عام (125هـ/ 753م)، قامت السلطات المحلية الصينية ببناء بحيرة صناعية على الطرف الشرقي من مدينة خمدان مع قناة صناعية، بهدف ربط العاصمة بميناء خانفو

البحري الشهير مما أسهم بزيادة عظيمة في حركة انتقال الناس والتجّار الصينيين وغيرهم بين أهم مكانين في الصين: العاصمة خمدان وميناء خانفو، فتغير المثل الصيني الشائع آنذاك "قوارب في الجنوب وخيول في الشمال"، والمقصود بالجنوب ميناء خانفو الواقع في الساحل الشرقي من الصين الذي ربط مائيًّا بالعاصمة خمدان. وقد ازداد النشاط التجاري وأدى إلى زيادة عدد الأجانب المقيمين في تشانغ آن.

كان هناك اختلاف ملحوظ بين الأجانب المقيمين في تشانق آن وبين أولئك المقيمين في ميناء خانفو؛ ففي الشمال حيث العاصمة تشانق آن بدا واضحًا وجود أجانب من أصل تركي، ومغول، وأجناس أخرى من الشعوب المجاورة للشمال، والغرب من حدود الصين. بالإضافة إلى هذا كان هناك عرب وفرس وهنود مقيمين في العاصمة. أما في خانفو فقد تواجد فيها مقيمون أجانب ينتمون إلى شعوب، قريبة من شعوب كمبوديا وفيتنام وجنوب شرق آسيا مثل جزر الملايو، وميندناو، وجافا، ومالقا، إضافة لأعداد كبيرة من المسلمين من عرب وفرس. ونظرًا لأهمية الجالية المسلمة في العاصمة تشانق آن فقد قامت السلطات الصينية بتعيين شخص مسلم من أصل فارسي كقائد أو مسؤول عن مصالح الجالية المسلمة في العاصمة، وأطلقت عليه لقب "قائد القافلة" (CARAVAN LEADER)، وعرف باللغة الصينية "سات باو". ونذكر هنا أن تعداد الشعب الصيني قد وصل في منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي إلى أكثر من 40 مليون نسمة، ولم تحدد المصادر الصينية تعداد السكان المسلمين في العاصمة في تلك الحقبة، إلا أنهم تواجدوا وكان لهم مسجد.

ازدهرت الجاليات الأجنبية في القرن التاسع الميلادي، ومنها الجالية المسلمة المكونة أساسًا من تجّار عرب وفرس، وقد ساعد في ازدهار وازدياد عدد المسلمين في العاصمة بناء القناة الصناعية التي ربطت ميناء خانفو بالعاصمة خمدان، حيث زاد التواصل مع مسلمي خانفو ذوي الأعداد الكبيرة والملتزمين دينهم. فانتعشت الحياة الدينية للمسلمين المقيمين في المدينة. وفي هذه الحقبة اتسعت المدينة مساحةً وسكانًا. فكان طول المدينة ستة أميال وعرضها خمسة أميال [88]. ولقد نجحت الحكومة الصينية في إنجاز المشاريع الضخمة.

تحدث أحد المؤرخين عن العثور على بعض الآثار المهمة التي تعود إلى أول مسجد بني في مدينة خمدان في بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وتعد هذه الآثار جزءًا من المسجد الكبير أهم مسجد لمدينة خمدان آنذاك [89]. وهذا ما يجعل الصلة التاريخية بين هذه المدينة وتاريخ المسلمين في الصين غاية في الأهمية. فالصينيون يعدونها أعظم حاضرة في تاريخ الصين. وشاء القدر أن يتلاقى النمو الصيني الحضاري في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي مع الصعود التاريخي للحضارة الإسلامية شرقًا وغربًا. وانتشر التجّار المسلمون والزوار في الصين وخاصة العاصمة خمدان، فتركوا تاريخًا حافلًا من التعايش والتبادل الحضاري بين الإسلام

والصين. وكان لهؤلاء التجار المقيمين في خمدان وغيرهم من المسلمين مثل العلماء والزوار النصيب الأكبر في هذا الإنجاز الحضاري والتاريخي مع الصين.

وليس فقط كتب التاريخ تشهد على ذلك، بل إن الكثير من الفنون الصينية مثل الفخار الصيني والرسومات الشهيرة للصين تظهر أشكالًا ورسومات لعرب وفرس كانوا مقيمين في خمدان، مما جعل العرب والمسلمين في تلك الحقبة جزءًا لا يتجزأ من تاريخ وحضارة الشعب الصيني.

لم يدم طويلًا العصر الذهبي لعاصمة الصين العظيمة خمدان، بل انحصر نفوذها التجاري والتبادل العالمي بعد انتهاء عهد أسرة التانغ وقدوم عهد جديد متمثلًا بأسرة حاكمة جديدة للصين تدعى أسرة السونغ.

فقد قررت أسرة السونغ نقل النشاط التجاري إلى طول الساحل الصيني الشرقي مما أثر بشكل سلبي وكبير على عاصمة أو حاضرة الصين العظيمة مدينة خمدان، وبدأ نفوذها يضمحل وإشعاعها العالمي ينطفئ تدريجيًا. فتحولت أنظار التجّار المسلمين وغيرهم من تجار أجانب إلى ميناء هانجزو (HANGZOU) التجاري الواقع على الساحل الشرقي للصين. وخلال حقبة حكم السونغ للصين، زاد التعداد السكاني للشعب الصيني بشكل ملحوظ حتى وصل إلى مائة مليون نسمة مع بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وتوسعت المدن وتضاعف عدد سكانها. وقد حظي المسلمون بتواجد ملحوظ ومهم في هذه المدينة إلا أن سلطات السونغ لم تتعامل بسياسة التانغ المتعاطفة والمتعاونة مع المسلمين والأجانب، فحكومة السونغ كانت حذرة وخائفة من الأجانب لعدم الإحساس بالاستقرار.

ومن مدن الصين المهمة التي استوطنها المسلمون مدينة الخنساء، وقد عرفت بمساحتها الكبيرة وعمرانها المتناثر على مساحات كبيرة [90]. وصفها ابن بطوطة خلال رحلته الشهيرة بقوله: "أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض" [91]. واشتهرت الخنساء بأسواقها العديدة ومبانيها الجميلة والحدائق والمنتزهات المتواجدة في أماكن عدة[92]. وكانت الخنساء غاية في الأهمية للتجّار العرب والمسلمين، و"إليها ينتهي وصول التجّار المسافرين من بلادنا" [93].

ويبدو أن هناك تناقضًا في تحديد الخنساء كما هو عند تعريف مدينة الخنساء، فقد ذكر أبو الفدا أن الخنساء هي خانفو[94]. لكن ابن بطوطة بين في رحلته أن خانفو هي مدينة خانق بالق[95]، وهي بكين الآن، إذ إن مدينة الخنساء تبعد عشرات الأيام عن خانق بالق[96]. وهذا يوضح بأن مدينة الخنساء بعيدة جدًا من خانق بالق (بكين). وأن رواية ابن بطوطة هي الأرجح والأقرب إلى الصواب، وذلك لكونه سافر إلى هناك. وقد تحدث ابن بطوطة في وصف رائع وبرهان واضح عن استقرار المسلمين بهذه المدينة الضخمة والمهمة في الصين، فروى أنها كانت منقسمة إلى ست مدن، وأن المدينة الثالثة منهم كان يسكنها المسلمون، ومدينتهم حسنة الأسواق مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام، وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم

يؤذنون بالظهر عند دخولنا (97). وبين الوصف مدى الاستقرار الذي كان يتمتع به المسلمون من حيث تصميم مكان استقرارهم على غرار المدن الإسلامية، وبناء المساجد كذلك أسواقهم. وبالرغم من أن هذا الوصف قد دون في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إلا أنه من الطبيعي أن يكون الاستقرار يرجع إلى سنين طويلة قبل ذلك.

وقد عرفنا ابن بطوطة على قاضي المدينة المسلم فخر الدين، وعلى شيخ الإسلام بها، كذلك على وجهاء وكبار المسلمين في المدينة، مثل أولاد عثمان بن عفان المصري، وذكر ابن بطوطة كيف خرج أولاد عثمان المصري ومعهم تاجر المدينة، وهم يحملون علمًا أبيض ومعهم الأطبال والأنفار والأبواق حتى أن أمير المدينة خرج في الموكب لاستقبال ابن بطوطة مع عساكر وحاشيته(98).

وكان من أجمل ما ذكره ابن بطوطة عن مدينة الخنساء، حديثه عن كثرة أعداد المسلمين فيها، وأن التجّار الأغنياء المسلمين ومن بينهم أولاد عثمان بن عفان المصري كانوا يكثرون من النفقات على الفقراء والمحتاجين. وأن هناك زاوية عرفت باسم العثمانية ولها أوقاف كثيرة، هذا بالإضافة إلى أن التاجر الشهير عثمان قد بنى المسجد الجامع في مدينة الخنساء(99). وقد مكث ابن بطوطة خمسة عشر يومًا، "فكنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة ولا يزالون يختلفون في أطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للنزهة في أقطار المدينة"(100).

يتضح أن المسلمين قد استقروا وعلى مدى أجيال، في مدينة الخنساء بالإضافة إلى قوة نفوذهم الاقتصادي. وأن وجود قاض للمدينة يحكم بالشريعة الإسلامية بين المسلمين المقيمين لهو دليل على الحرية الممنوحة للمسلمين الذين اختاروا الحياة في الصين لكنهم حافظوا على هويتهم الإسلامية متمسكين بالعادات والتقاليد المستمدة من الإسلام.

أما عن مدينة خانق بالق، فقد وصفها ابن بطوطة فقال: "من أعظم مدن الدنيا" (101). وأن هذه المدينة اختلفت في التصميم عن باقي المدن الصينية، وذلك أن البيوت والحدائق صممت خارج الأسوار وليس داخلها كما في بقية المدن الصينية. وقد ذكر ابن بطوطة أنه قد تم تعيين مسلم مسؤولًا عن باقي المسلمين، وتمت مخاطبته بصدر الجهان" (102). وقد جاء وصف المسلمين في مدينة خانق بالق في إحدى الرسائل من أحد القساوسة النصارى خلال رحلة تبشيرية في شهر (رجب 705هـ/ فبراير 1306م)، فقد ذكر القسيس اسم بكين على هذه المدينة، ورأى فيها عربًا ومسلمين، وأنه حاول التبشير في أحد المساجد في المدينة، لكنه فوجئ بقوة نفوذ العرب والمسلمين بعاداتهم وتقاليدهم، وتأثيرهم حتى في النصارى المقيمين في المدينة، فقد لاحظ أن بعض النصارى كانوا يقلدون المسلمين والعرب في أطباعهم مثل "غسل أقدامهم قبل دخول الكنيسة، وأكل اللحوم يوم الجمعة، بل وجعل الجمعة يوم عطلة أسبوعية تقليدًا وتطبعًا بالعرب المقيمين في المدينة. كما

ذكر ابن بطوطة أن في كل بلد من بلاد الصين يوجد مسلمون، وهم حريصون على وجود قاضٍ يتولى أمور القضاء، ويرجعون إليه في أمور الدين والدنيا، بالإضافة إلى وجود المساجد، وبالأخص المسجد الجامع والزاوية والسوق(103). ويبدو من وصف ابن بطوطة، أن الإكرام والكرم وحسن المعاملة بين المسلمين تتكرر في أماكن عدة زارها. إن هذه المعاملة للضيوف القادمين من بلاد العرب والإسلام لتدل على حرص مسلمي الصين على التواصل بإخوانهم المسلمين، وحبهم وتعلقهم بالدولة الإسلامية في المشرق.

- الانتشار الجغرافي للمسلمين في غرب الصين

كانت أهم مناطق الصين الغربية التي استقر فيها المسلمون مدينة كاشغر (104) الواقعة في أقصى غرب الصين(105). ونعلم أن القائد العربي الكبير قتيبة بن مسلم الباهلي(106) كان قد وصل فاتحًا إلى مناطق غرب الصين القريبة من كاشغر. وفي السنين اللاحقة اشتهرت مدينة كاشغر كونها من أهم المدن الواقعة على طريق تجارة الحرير الشهير الممتد من غرب آسيا في البلاد العربية إلى أواسط الصين وأشهر مدنها التجارية. فاكتسبت أهمية بالغة في التاريخ الإسلامي والصيني. فمن المعروف عن كاشغر أنها واقعة بين العالم الصيني والعالم التركي المكون من قبائل عديدة مثل الخزر. وقد أدى هذا الاحتكاك إلى حروب أسهمت في تغيير واقع المناطق الغربية للصين وعلى رأسها كاشغر. وفي عام (333هـ/ 944م)، سيطر ملك تركي مسلم اسمه شهاب الدولة هارون بن سليمان أيلك المعروف ببغراخان التركي على مدينة كاشغر(107). وفي عام (435هـ/ 1143م)، أسلمت الكثير من القبائل التركية المتاخمة لحدود الصين. فقد كانت هذه القبائل تهدد المسلمين في تلك المناطق، ويرجع ذلك إلى قوة وبأس القائد التركي المسلم شرف الدولة الذي كان يسيطر على مدينة كاشغر. ففي ذلك العام روي أن الذين تحولوا إلى الإسلام قد ضحوا "بعشرين ألف رأس غنم وكفى الله المسلمين شرهم"(108).

عرف عن مدينة كاشغر أنها مدينة كبيرة فيها الجامع ومصلى العيد، وأسواقها كثيرة ولها أبواب عديدة(109). واستقرت بها أعداد كبيرة من المسلمين القادمين من بلاد إسلامية عبر طريق الحرير الشهير الذي يمر بكاشغر والمناطق المحيطة بها، وأقاموا جنبًا إلى جنب مع الكثير من الشعوب المجاورة التي أصبحت ديانتها الإسلام. وقد استمرت ظاهرة أسلمة كاشغر والمناطق الغربية من الصين، كذلك مناطق تركستان خلال الحقبة الممتدة من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري/ الثامن إلى العاشر الميلادي. فعلى مر هذه القرون الثلاثة، حاولت ديانات أخرى مثل النصرانية والمجوسية التوغل في مناطق غرب الصين إلا أنها لم تنجح كثيرًا مثلما نجح الإسلام الذي كان الأكثر انتشارًا وتوغلًا في مناطق الصين. إذ تحولت قبائل عديدة من أصل صيني وتركي إلى الإسلام الذي جعل منهم شعوبًا تنتمي إلى هوية توحد كيانهم أكثر من

تلك التي كان النظام الرسمي الصيني يحاول أن يحققها بينهم في تلك الحقبة.

استمرت كاشغر تحتل مكانة رفيعة بين المسلمين كونها مدينة مهمة على طريق الحرير، ولاستقرار عدد كبير من المسلمين فيها. فمع بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، بدأ الإسلام ينتشر بشكل سريع إلى أن اضمحلت الديانة الرئيسة في تلك المنطقة وهي البوذية، وأصبح الإسلام الدين الأقوى والمسيطر على كاشغر والمناطق الغربية من الصين كذلك تركستان والقبائل التركية[110]. ومع نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، تحولت شعوب التتار والمغول في غرب الصين وتركستان المجاورة لها إلى الإسلام ومعها تبنوا اللغة التركية وديانتهم الرسمية أصبحت الإسلام. ومع سقوط الإمبراطورية المغولية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أصبح الإسلام يمثل الكيان السياسي الرئيس لجميع شعوب المنطقة، وبذلك لم يعد النظام السياسي الصيني يسيطر على تلك المنطقة ذات الشعوب الإسلامية كما كان سابقًا. فكوّن مسلمو كاشغر والشعوب الإسلامية المجاورة هوية إسلامية، بل ومرجعية سياسية تجمع مصالحهم على مساحات شاسعة مترامية الأطراف في وسط آسيا.

تحدثت بعض المصادر العربية القديمة عن وصول المسلمين واستقرارهم في مناطق أقصى شرق الصين[111]، وقد أطلق على هذه المناطق الواقعة في أقصى شرق الصين مسميات منها الشيلا[112]، والسلا[113]، والأشبيلا[114]. وقد وصفها أبو الفدا في تقويم البلدان فقال: "وهي من أعالي الصين من الشرق، وقلما يسلك إليها في البحر وهي من جزائر في بحر الشرق"[115]. ويتضح هنا أن بلاد الشيلا والسيلا هي كوريا الآن التي تقع شمال شرق الصين كما وصفت في تقويم البلدان. ويبدو أنها اشتهرت بالذهب حسبما ورد في المسالك والممالك "وفيها الذهب الكثير"[116]. وكما ورد في المنتظم "بها الذهب الكثير"[117]. "وسكن بها المسلمون ومن دخلها من المسلمين استوطنها لطيبها"[118]. ويبدو أن هذه هي المصادر العربية الأولية التي ذكرت جزر كوريا واستقرار المسلمين فيها.

***

الهوامش:

*** أستاذ مساعد في التاريخ الحديث والمعاصر – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجامعة اللبنانية**

(1) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، بيروت، دار صادر، ط1، 1358هـ، ج2، ص320؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، بيروت، مكتبة المعارف، ج7، ص129-130.

(2) ابن الأثير، محمد بن عبد الواحد، **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، ج2، ص434.

(3) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، ص129.

(4) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج2، ص237.

(5) المقدسي، مطهر بن طاهر، **البدء والتاريخ**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ج5، ص183.

(6) Fitzgeraled, C.P., **Flood Tide in China**, London: The Crescent Press, 1958, p. 324.

(7) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي، **تاريخ اليعقوبي**، بيروت، دار صادر، ج2، ص289؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج9، ص119.

(8) ابن خياط، خليفة الليثي العصفري أبو عمر، **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق: أكرم ضياء العمري، بيروت، دار القلم، ط2، 1379هـ، ص301؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج4، ص186؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز، "**العبر في خبر من غير**"، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1948م، ج1، ص103؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج9، ص74؛ ابن العماد، عبد الحي بن أحمد العكري، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ج1، ص98

(9) الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الطبري**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، ج4، ص30؛ ابن الجوزي، **المنتظم**، ج17، ص12؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج4، ص189؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج9، ص140

(10) هي أدنى مدائن الصين، ينظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ص290

(11) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج4، ص31

(12) م. ن.، ج4، ص31

(13) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج4، ص30؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4، ص290

(14) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج9، ص141

(15) م. ن.، ج9، ص141.

(16) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج4، ص290

(17) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج9، ص142

(18) م. ن.، ج9، ص142

(19) العاوور، صلاح حسن، **تاريخ الخلافة الأموية الجهادي والمالي**، رفح، مكتبة إيهاب، ط1، 1994م، ص72

(20) Fitzgeraled, C.P., **Flood Tide in China**, p. 32

(21) Fitzgeraled, C.P., **Flood Tide in China**, P. 326

(22) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص316؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج1، ص164؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج4، ص292؛ أحمد، محمود حسن، **الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى**، بيروت، دار الفكر العربي، ط1، م1، 2010، ص75

(23) الجنابي، هيثم، **الإسلام في أوراسيا**، بيروت، دار المنتدى للثقافة والنشر، ط1، 2003م، ص11

(24) Frank,w, Thackeray and John Findling: "**The History of China**", Greenwood Press,west port, London, 2001 p67

(25) Ibid p. 69

(26) Findling, John, **The history of China**, p. 69.

(27) خسرو، ناصر، **سفر نامة**، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط3، ص69؛ الطبري، **تاريخ الطبري**، ج2، ص440

(28) Findling, John, **The history of China** , P. 105.

(29) ابن النديم، محمد بن اسحق، **الفهرست**، بيروت، دار المعرفة، ص60

(30) Fitzgeraled, C.P., **Flood Tide in China**, p. 315

(31) Fitzgerald, C.P., **Flood tide in China**, p. 321

(32) Ibid, p. 139

(33) Ibid, p. 139

(34) Ibid, p. 139

(35) Ibid, p. 139

(36) Fitzgerald, C.P., **Flood Tide in China**, p. 321

(37) Findling, John, **The history of China**, p. 73

(38) السيرافي، الحسن أبو زيد "**رحلة السيرافي**" تحقيق عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي، ابو ظبي، 1999، ج1، ص43.

(39) م. ن، ص43

(40) م. ن، ص57

(41) **تاريخ اليعقوبي**، ج1، ص180.

(42) Fitzgeraled, China: **Flood Tide in China**, p. 327

(43) Ibid, p. 328

(44) ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج2، دار احياء العلوم، بيروت 1987، ط1، ص718.

(45) ابن النديم، محمد بن اسحق، **الفهرست**، بيروت، دار المعرفة، ج1، ص494

(46) ابن النديم، **الفهرست**، ج1، ص494؛ ابن الأزرق، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق علي النشار، وزارة الإعلام العراق 2010، ج1، ص402؛ ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج2، ص721

(47) **الخليفة العباسي الناصر لدين الله**، بويع له بالخلافة عام 575هـ، ومات عام 622هـ.

(48) ابن العماد، عبد الحي بن أحمد العكري، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ج3، ص98

(49) **السلطان ملكشاه**، توفي سنة 485 هجري.

(50) أبو شامة، **كتاب الروضتين في اخبار الدولتين**، تحقيق ابراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت 1997، ج1، ص100

(51) ابن العماد، عبد الحي بن أحمد العكري، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ج1، ص260؛ الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، ج2، ص152

(52) **المنأنية**: هي إحدى أسماء الفرق التي "كانت بين عيسى عليه السلام ومحمد (صلى الله عليه وسلم)"، ينظر: ابن النديم، **الفهرست**، ج1، ص479

(53) ابن النديم، **الفهرست**، ج1، ص47.

(54) م. ن.، ج1، ص47.

(55) م. ن، ج1، ص471.

(56) **خانفو**: من بين مدن الصين، وهي المدينة التي يقصدها التجار المسلمين، وبينها وبين البحر مسيرة أيام يسيرة، وهي على واد عظيم وماء عذب، ينظر: السيرافي، **رحلة السيرافي**، ص45

(57) الزيتونة، هي من فرض الصين، ينظر: أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر، **تقويم البلدان**، تحقيق رينود، الناشر دار صادر بيروت، طبعة باريس 1850م، ص394

(58) السيرافي، **رحلة السيرافي**، ص24

(59) لمعرفة المزيد عن سليمان التاجر، ينظر: السيرافي، **رحلة السيرافي**، ص6

(60) السيرافي، **رحلة السيرافي**، ص6

(61) السيرافي، رحلة السيرافي، ص59

(62) ابن خردازنه، ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله، **المسالك والممالك**، دار صادر افست ليدن، بيروت 1889م، ج 1، ص69

(63) م. ن، ص96.

(64) Fitzgerald, **Flood tide in China**, p. 330.

(65) للمزيد عن أنواع التجارة التي تاجر بها العرب إلى الصين، ينظر: Fitzgerald, **Flood tide in China**, p. 330

(66) السيرافي، **رحلة السيرافي**، ص75

(67) السيرافي، **رحلة السيرافي**، ص54؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج6، ص278. للمزيد عن الجنرال المتمرد وصراعه مع ملك الصين، ينظر أبو زيد، **رحلة السيرافي**، ص54-56

(68) رحلة **السيرافي**، ص54

(69) م. ن، ج1، ص165.

(70) Findliihg, **The history of China**, p. 70

(71) السيرافي، رحلة السيرافي، ص54.

(72) Findling, **The history of China**, p. 70.

(73) Findling, **The history of China**, p. 70.

(74) أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر، **تقويم البلدان**، تحقيق رينود، دار صادر، بيروت، طبعة باريس 1850، ص397، وانظر القلقشندي، ابي العباس، **صبح الأعشى**، ج4، دار الكتب المصرية، القاهرة 1340 هـ/ 1922 م، ص479

(75) القلقشندي، **صبح الاعشى**، ج4، ص497؛ أبو الفداء، **تقويم البلدان**، ص379

(76) ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج2، ص722

(77) لمعرفة المزيد عن الوصف الجغرافي الإقليمي لمدينة الزيتون، ينظر: أبو الفداء، **تقويم البلدان**، ص397؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص479

(78) ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج2، ص722

(79) م.ن، ج2، ص722

(80) م.ن، ج2، ص722

(81) م. ن، ج2، ص722

(82) م. ن، ج2، ص722

(83) رحلة السيرافي، ص64

(84) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج1، ص172

(85) ابن حوقل، أبي القاسم النصيبي، **كتاب صورة الأرض**، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1992م، ص23؛ المقدسي، مطهر بن طاهر، **البدء والتاريخ**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية ج4، ص61

(86) السيرافي، **رحلة السيرافي**، ص64؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ص172

(87) م. ن، ص64.

(88) Fitzgerald, **Flood Tide in China**, p. 316

(89) Ibid, p. 329

(90) ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة، ج 2**، ص728، القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص478

(91) ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج2، ص72

(92) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص478

(93) م. ن، ج4، ص478

(94) م. ن، ص394

(95) ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج2، ص733

(96) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص478؛ ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج2، ص733

(97) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج2، ص728

(98) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج2، ص728

(99) م. ن، ج2، ص728

(100) م. ن.، ج2، ص728

(101) م. ن، ج2، ص733

(102) م.ن.، ج2، ص733

(103) ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج2، ص743

(104) **كاشغر**: هي مدينة وقرى ورسانيبق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون، ينظر: ياقوت، أبي عبد الله بن عبد الله الحموي البغدادي، **معجم البلدان**، الناشر السعادة، مصر، ربيع الاول 1439 هجرية، ج4، ص 430

(105) الإدريسي، محمد بن محمد الحسني الطالبي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**،، عالم الكتب، بيروت، ج1، 1409 هـ، ص517

(106) **قتيبة بن مسلم الباهلي**: ولي سنة 86هـ، واستشهد عام 96هـ في خراسان، ينظر: ابن العماد، عبد الحي بن أحمد العكري، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ج1، ص 96 وص 112

(107) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج7، ص461

(108) م. ن، ج8، ص265. هو جلال الدولة أبو الفتح ملشكاه بن سلطان ابن أرسلان محمد السلجوكي التركي، ينظر: الذهبي، الامام شمس الدين، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق اكرم البوشي، مؤسسة الرسالة، 1983، ط1، ج14، ص54-55

(109) ابن حوقل، أبي القاسم النصيبي، **كتاب صورة الأرض**، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1992م ص421

(110) Fitzgeraled, **Flood Tide in China**, p. 329

(111) ابن خردازنه، **المسالك والممالك**، ص68؛ أبو الفدا، **تقويم البلدان**، ص397- 396

(112) ابن خردازنه، **المسالك والممالك**، ص68

(113) أبو الفدا، **تقويم البلدان**، ص396

(114) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، بيروت، دار صادر، 1358هـ، ج1، ص134

(115) أبو الفدا، **تقويم البلدان**، ص396

(116) ابن خردازنه، **المسالك والممالك**، ص68

(117) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج1، ص134

(118) ابن خردازنه، **المسالك والممالك**، ص68

* * *